لغة الطفل بين اليومي والعادي

أ.م.د. شفيق المهدي

مدخل

اللغة مؤسسة..... لها نظامها الخاص، ورغم عمومية تداوليتها، إلا إن لها نسقها الخاص، انفتاح هذا النسق على كافة التطورات والمؤثرات والاستجابات، كافة والأفعال، وردات الفعل في حركة اي مجتمع، ولهذه المؤسسة رغم مرتكزاتها التجريدية، إلا أنها تتمتع بوعاء حسين فهي مادة- من مستوى معين – ولذلك فهي قابلة للإدراك، ولطالما أنها قابلة للإدراك، فإنها تكون خاضعة تماما للتخطيط.. والتخطيط عملية عقلية...على الرغم من أننا نخطط ونضع نظريات، كل نظرية تزيح الأخرى بمقدار ما يوجد فيها من مصداقية، إلا إننا في احتمالات الوجود، انما نخطط لوجود سابق على وجود ذواتنا ... كتقنيات موجودة في الطبيعة، وهي أي اللغة وجود شابق على فردانيتنا نحن البشر، نحن اللذين تمارس علينا اللغة استبداها وضغوطها، لكي نولد فعلاً في هذه الحياة ولكي نكون فاعلين أو مؤثرين داخل منطقة استيعاب المؤسسات العامة الاجتماعية – على وجه الخصوص – وما فاعل اللغة أو مفعولها إلا هوامش في منطقة الاستيعاب هذه التي تشمل القواعد والنحو والصرف ولهذا يرى الباحث بأن اللغة وعي ، والوعي قرين هذه اللغة ليس جارها أو مجرورها وانما في مستوى توليداتها وإنتاجيتها كما في دلالالياتها وتداوليتها ولهذا فاللغة مؤسسة تدفع بالإنسان خارج حضريته، وان لم يستوعبها ولهذا نرى كما يرى الغذامي بأن وعي الفرد في أي مجتمع إنما يخضع (وفي لحظة تاريخية معينة لسلطة الخطاب المؤسساتي والذي يمارس هيمنة تتمثل في سلطة الإقصاء والتهميش لبعض المقولات والمبادئ والأنساق الفكرية والثقافية التي تعارضه)(١).

أو على عكس مايريده الغذامي، ان يعارضها، اي عندما تكون هناك معارضة للإنسان ضد لغته أو ضد اللغات الأجنبية الأخرى ... بمعنى عدم تقبلها بفعل لا واعي – خفي، لا نستطيع تحسسه لكنه لا يشبه في كل الأحوال معارضته أو عدم تقبل احد الفنون، وذلك لان وجود اللغة اشمل واعم، وتدخلاتها في حياتنا يدور على أجزاء الثانية والدقيقة، ولا تنقطع الصلة باللغة إلا بالموت وربما من بعده أي علاقة اللغة بالإنسان عندما يصبح جثة أي ما نسميها نحن بالتلقين وهي تميز نوعي للغة طقوسية اعم واشمل، وهي متداولة في كل الأحيان وفي جميع الديانات السماوية والوضعية وهذا ما لم يتم الانتباه له من قبل.

إذن بين حدي اللغة يولد الإنسان، وللباحث الحق أن ينوه هنا بأن الإنسان في ولادته إنما يولد ولادة لغوية أي عندما يمنح الاسم الخاص ب هاو عندما يوضع في لغة طقسوية كالتعميد أو التشهد، وعلى هذا تتشكل حياته في جزء مهم من وجوده النوعي والطفل يوجد (بالفعل) على حد الفهم الأرسطي، أنما يوجد في لغة، إذ ليس له حق الرفض أو الامتناع أو التضاد إلا في حالة العوق الفيزياوي، كما أن لا احد أن ينكر عليه هذا الوجود الطبيعي، بحكم طبيعة خلقه ومؤهلاته الفيزياوية التي تمكنه من الاستيعاب، التمثل، الإنتاج والفهم صعوداً من تصويتات تنغيمية بسيطة تلقائية تنتج هي الأخرى بحكم الاستعمال الأولي لهذه المؤهلات (الدماغ وأجهزة النطق، اللسان، اللثة، الشفاه.. الخ) صعوداً إلى أقصى إنتاج اللغة في صيغة استعلاء لغة الفلسفة على الإنسان العادي ، اقصد اللغة الشفاهية مثل لغة الدرس أو

المحاضرة، أو ما يقع في منطقة التجريدات الرياضية في حده العادي والأقصى إذ يستولد المجرد من وسط حسي حياتي يعلن عن فيضان ما هو حكائي او سردي، يومي بسيط بل عادي ومبتذل.

أن الطفل وحده يعيش هذا الفيضان اللغوي في البيت أو المدرسة والشارع وفي أماكن التواجد العامة، وعليه وحده أن يتعلم السباحة في مجتمعات لا تقيم لهذا الأمر وزناً ، كما في المجتمعات المتخلفة التي تقترب فيه لغة المحاضرات الجامعية من لغة السوق أو الشارع أي المستوى العادي في تداول اللغة هذا مع أخذنا بعين الاعتبار و المعايير والقياسات التي تشير على نمو دماغ الإنسان وما يستطيعه من خزن أو استعمال وكلما اقتنى الطفل وسيلة إضافية للسباحة وسط هذا الفيضان اللغوي .

فجأة يولد الطفل في محيط أو بيئة الكبار ذاتها، لا فرق ، الألوان التي تحيط إلام والأب وبقية أفراد العائلة اللذين سبقوه في الولادة هي ذاتها الألوان التي تحيط هذا الطفل، وكذلك الأثاث والجدران واللوحات والروائح والأصوات، وكل ما يؤسس لبيئة الكبار من عناصر أو مكونات – عن قصد أو غير قصد – هي نفسها التي تمارس على الطفل "جبرية" بدرجة معينة، أنها تمارس تأثيراً خفياً هذا بالإضافة إلى تأثير العادات والمعتقدات والرموز والأصوات والأغاني، والطعام وطرقة تناوله... بالإضافة إلى الطبائع الأخلاقية والديانة التي تدين بها الأسرة، وفي هذا الوسط "المشتبك" تبدأ الخطوات الأولى للطفل، خطوات تقبل الحياة داخل جدران السكن الذي يعيش به، ومنذ الأيام الأولى تبدأ عملية التكيف والاستعداد للتلاؤم أو التضاد، ولكن عدة الطفل هنا هي محمولة الجيني وصفته الوراثية ونوعه الذي ينتمي إليه في كونه من بني البشر ذكر كان أم أنثى، وهو – أي الطفل – ولعام مستمر يقل شهراً أو يزيد شهراً إنما يختزن ما يسمع أم ما يرى أم ما يشم أو ما يلامس، ومن ضمن ما يختزنه الأصوات والكلام ، وطرقة الكلام، ومصدره حتى يستطيع أن يقول كلمته الأولى التي يتقافز لها الإباء والأمهات فرحاً ودهشة، حتى ولو كان هذا طفلهم الثالث أو الخامس أو السابع ... فهذه الكلمة – الأولى " هي ابتكاره الأول، كما أنها إشارة قوية للانضمام إلى الحياة بدلالة سلامة وصحة أجهزة النطق، وهي بالتالي واجباً يقدمه الطفل بأنه قادراً على الاستمرارية في الحياة بطريقة، اعتيادية، هذه هي الكلمة الضمانة بأنه طفل سوي ، يقولها الطفل دون أن يدري وتر فيها الأسرة – خصوصاً إلام والأب – لإزالة الغموض أو اللبس ليس في طريقة التعامل أو مستوى العلاقة أو درجاتها بل للحصول على شهادة يمنحها الطفل لعائلته، ووثيقة مهمة تؤكد على مواصلة الحياة معهم دون إخفاق أو ألم... أن هذه الكلمة هي الولادة الثانية للطفل وهي تعميد اجتماعي بدرجة ما، وكلما استمر الطفل في إنتاج هذه الكلمات كلما تماسكت شخصيته وكلما كان هذا مدعاة إلام أو الأب بأن طفلهم يمارس ويتقدم في حياته تقدماً حسناً، ولهذا تتم ملاحظة درجة القلق التي تنتاب الأسرة بأجمعها عندما يتخلف هذا الطفل في نطق الكلمة أو صعوبة النطق غير المريحة ، يبدأ هذا القلق بعد العام الأول من حياة الطفل، وفي كلتا الحالتين يبدي الوالدين حرصاً وشجاعة على تعليم طفلهم الكيفيات التي يتم فيها اكتساب اللغة خصوصاً بعد أن تنتهي الدهشة الأولى التي تقترن بولادة الطفل في حالة "لغة" أي في حالة تأكيد الوجود النوعي على انه وجود سوي وصحيح، وهذه الحالة تجد لها أساسا فطرياً لدى الطفل لوجود "المؤهلات" التي تشجع على سلامة هذه الفطرة، بل وتتثبت سلامتها، وفي هذه النقطة التقت دعوات الأديان أنسانا ذو فطرة سليمة لكي يؤدي واجباته الدينية ، كما تريد العلوم طفلاً سليماً يمارس قدراً ملحوظاً من التكيف مع المحيط كما يرى (بياجيه) وهو يرصد هذا الطفل عندما يمر بالمراحل والتسلسلات الزمنية لكي يحقق وينجز ما مطلوب منه من مراحل النضج والنمو العقلي الذي يراه

في ذكاء الطفل الحسي في العاميين الأوليين، في ذكاء الفهم الذي خرج بنتيجة هي (أن التخلفات الواضحة الملاحظة في النمو الحسي الحركي في السنة الأولى يمكن ان تكون إشارة دائمة للتخلف مستقبلاً لدى الطفل)(٢) رغم الإقرار بأن عملية التقدم او التخلف ما تزال شديدة الإبهام بالنسبة له في هذه المرحلة من عمر الطفل.

الفصل الأول:

مشكلة البحث

تكمن مشكلة البحث هذا في سرعة التحولات على مجتمعاتنا العربية عموماً وعلى الأطفال خصوصاً مع ملاحظة شدة هذه التحولات بما يؤثر على سرعة وشدة التغيرات والتحولات المفاجئة على لغة الطفل، وباندثار مفردات لغوية وحلول مفردات أخرى محلها.

حدود البحث

تتجسد حدود هذا البحث في الفئات العمرية المتتالية للطفل ومن عمر ٦ أعوام وما يليها كما يتم هذا الفحص وهذا الاستقصاء لهذه التحولات في الأعوام العشرة الأخيرة أي من عام ٢٠٠٣ وحتى ألان، لأنها الفترة الأعمق والأشد في تحولات لغة الطفل بل وأكثرها حدة ووضوحاً في مجتمعنا العراقي المعاصر .

أهمية البحث والحاجة إليه

يفرض هذا البحث أهميته لكونه ينظر في نمو لغة الطفل وعلاقة هذا النمو بالتحولات المجتمعية الحادة والتي يمر بها مجتمعنا العراقي خاصة والمجتمعات العربية عموماً، ولهذا تكون الحاجة ملحة في فحص واستقصاء ظاهرة التحولات هذه وإيجاد الحلول التربوية منهجياً على مستوى المدارس وحلقات الإعلام التي تعنيه من مجلات وصحف ومناهج مدرسية وبما يتلائم مع نمو لغة الطفل في وضعها الطبيعي.

الفصل الثاني:

الطفل – الفرد

تقول المسلمة أن الطفل ينمو تدريجياً ولكنه في الحصيلة النهائية سيكون بعد فترة زمنية يقطعها في هذه الحياة... أن يكون فرداً مستقلاً ينضم على صفات وخصائص تميزه عن غيره، وهي خاصة به حتى وأن شابه أباه ... فإذا حصل هذا الشبه على مستوى القوام أو الهيئة أو الشكل أو الصفات، فهو لا بد أن يمتلك خصائص داخلية تخصه وحده وكذلك قد يختلفان أو يفترقان سلباً أم إيجابا في قضية "الحصيلة اللغوية" التي أعدها صفة، أو لا بد من أن تعد صفة يمكن أن تكون عنواناً واضحاً وبينياً في حالة دراسة الفروق بين فرد وأخر عندما يكونان ضمن المرحلة العمرية، وذلك لان الحصيلة اللغوية تؤشر على مقدار تقدم هذا الطفل أو تراجعه في حياته أو عمله .

والعائلة أو المؤسسة– المدرسة وغيرها عندما تباشر بتعليم الأطفال اكتساب اللغة وخصوصاً اللغة إلام إنما تضع مؤشراً لها بأن هذا الطفل سيمتلك مع امتلاك هذه اللغة فردانيته الخاصة به مهما كان انتماءه للجماعة أو المجتمع، وبالتالي إنما يتم تأهيله ضمن السياق العام لكي يكون فرداً يتقبله المجتمع ويرحب به، كما يستطيع هو الاندماج أو التكييف ضمن هذا المجتمع، بل لا أبالغ، أن العائلة عندما تقوم بواجباتها هذا إنما تعده لكي يكون مواطناً صالحاً يستطيع

أن يؤدي واجباته في المستقبل وان يطالب بحقوقه، ولهذا تبالغ الأسرة بإبداء السعادة عندما ترى في طفلها مستوى من مستويات التميز في القدرة على الاستجابة والاستيعاب وكذلك المعلمة في المدرسة، وأصبح من البديهي القول بأن اللغة هي الوسيلة الأهم لكي يكون هذا الطفل أو ذاك على مستوى من السواء في حياته القادمة وتعد اللغة إشارة قوية على مدى ارتباط هذا الطفل بمستقبله، وقد تكون إشارة على مقدار تقدمه في حياته الشخصية أو في مقدار نجاحه أو إخفاقه في المستقبل، بل ومؤشراً أوليا على رصد تطور اتجاهات التخصص الذي يريده في المستقبل، كما أن لنا أن نقول بأن رصد الخزين اللغوي وطريقة تصريفه واستعماله وتصنيف اتجاهاته واستعمال الكلمات تساعد كثيراً على دراسة الطفل نفسياً والآثار النفسية التي (تتمثل في انفتاح الشخصية على ما يحيط بها ونمو غريزة الاجتماع لديها، ومن ثم نمو روح الألفة والجرأة الأدبية والثقة بالنفس فالإنسان الذي يقل محصوله من ألفاظ اللغة وصيغها يقل محصوله الفكري كما تقل قدرته على التعبير وعلى التواصل مع الآخرين والتكييف معهم(٣).

وعندما ينقطع الحبل السري بين إلام والمولود الجديد، يستجد حبلاً سرياً أخر هو، حبل اللغة الذي لا ينقطع أبدا بين هذا المولود وبين مجتمعه، إذ تتجاوز حصيلة المولود حاجته لديمومة الحياة ، تتجاوز توفير الغذاء له، إلى علاقة أوسع هي في تلك البدايات المبكرة جداً لإقامة علاقة مع الأخر، الأخر – الشم، الأخر – اللمس، الأخر – السمع، الأخر البصر، تكون هذه الحاجة أيضا إلى لغة يكتسبها هو لتكون هذه اللغة وسيلة من وسائل الاطمئنان على إقامته الصلة هذه ولإدامتها، بل عاملاً إضافيا – غير انه أساسي في المستقبل – للاستحواذ على الأخر أو جذبه والطفل يجيد هذا التعامل ويعرفه، أي يعرف بأن اللغة المعبر عنها حسياً عن طريق الكلام، إنما هي وسيلة لشد الأخر، بل وكسب وده ومحبته، كما انه يعرف بان وبهذه الوساطة يستطيع أن يعبرعن داخله وان ينفس غضبه، أو أن يعلن احتجاجه أو أن يحقق مراده ومبتغاه... انه يوظف اللغة كوسيلة تعبير ويتمكن غالباً من النجاح عبرها، خصوصاً في محيطه العائلي، إلام، الأب، الأخ، الأخت، الأقارب، أو الأصدقاء والزملاء في المدرسة. فتكون اللغة عنده وسيلة تعبير ووسيلة اتصال مع الأخر، وسيلة أقناع واستقطاب، كما أنها وسيلة رفض وصد عندما يستدعي الأمر، وكلما تقدم الطفل باتجاه وضع الذات ضمن محددات ومميزات وخصائص فردية، كلما قدم فرصة لإيجاد مستوى من التعامل مع الجماعة، سلباً أم ايجابياً، وعندما تتعثر عنده اللغة والكلام تتعثر معه الشخصية كلها، وعندما يعثر اللسان يتعثر الكلام وتشل اليد.

ويتجمد الانفعال، يقوده هذا إلى العزلة التي يجب رصدها منذ البدء ، وكلما أحس الطفل جراء عزلته اللغوية هذه كلما تأكدت عنده عزلته النفسية والروحية والاجتماعية مما يؤدي إلى بناء تراكمي، يصعب حله في المستقبل، بل يسوقه هذا إلى أمراض نفسية وعضوية تؤدي به إلى النفور من العائلة والمجتمع ومن الصدود عن الجماعة وهذا يتوقف على وعي الأسرة التي يولد فيها وعلى ثقافة المجتمع الذي يعيش فيه، وغالباً ما تكون مجتمعاتنا العربية، مجتمعات قهرية، أو قمعية مما يضاعف الخطأ للحد الذي يصل إلى التأزم، فتكون التأتأة او الفأفأة واللجم والقطع ، بل وشبه الخرس، حتى أن بعض الأطفال الذي يعرف أو يفهم هذا ، يتحول إلى طفل سريع الغضب شديد الانفجار، بل يصل به الحد إلى اعتبار أن أمه أو أبيه ، هما سبب المشكلة، فيقترن عنده العزل اللغوي ، بالوحدة ، بالكراهية .. أن زج الطفل في حوار مفتوح داخل الأسرة وفسح المجال للتعبير والقول والتحدث مع الآخرين ، كما أن دور المعلمة في تشجيعه للوقوف أمام زملاءه أثناء شرح مادة الدرس أو في درس التعبير هي وسائل ناجعة وأولية لتعزيز شخصية الطفل باتجاه أن يكون فرداً ناجحاً ومواطناً صالحاً وفي نسيج مجتمعاتنا العربية خيط من هذا الجمال والسلاسة والمودة

والحنو وكأنها ردة فعل على القهرية السائدة أو المستبدة اجتماعياً أو سياسياً، أي عن طريق الأعراف والتقاليد الصارمة، أو عن طريق منظومات الحكم السياسية القاهرة والشديدة القسوة .

الطفل بين اللغة والدين

في دراستين جادتين قامت السيدة قمر روحي الفيصل باستقصاء القيم من خلال تحليل المحتوى ألقيمي لنصوص موجهة للأطفال ، كانت الدراسة الأولى في عام ١٩٧٩، إذ حللت ١٣٨ نصاً قصصياً موجهاً للفئة العمرية العليا (٩-١٢) استناداً إلى تصنيف (وايت) وقد خرجت بمراتب ستة ، الأولى لمجموع القيم المعرفية الثقافية (٤٢) قيمة والثانية لمجموع القيم الاجتماعية (٢٨) قيمة والثالثة لمجموعة قيم تكامل الشخصية (١٩) قيمة والرابعة لمجموعة القيم الوطنية القومية (١٧) قيمة والخامسة لمجموعة القيم العملية الاقتصادية (٧) قيم والمرتبة السادسة لمجموعة القيم الأخلاقية (٥) قيم (انصرفت القيم إلى الأخلاق ، وأهملت العدالة والطاعة والدين، ثم قامت بدراسة أخرى في عام ١٩٨٤ وكانت العينة (٢٢٣) نص قصصي ولنفس الفئة العمرية وفق تصنيف وايت، وتوصلت إلى ثماني نتائج، كانت السابعة هي ما تعني دراستنا هذه لأنها تتصل بالقيم الأخلاقية التي غالباً ما تنسجم أو تأتي من خلال الطروحات الدينية لهذا النص أو ذاك وقد أشارت هذه الدراسة في المادة السابعة إلى ظهور (٥) قيم، وقد انصرفت إلى الأخلاق وأهملت قيم الصدق والعدالة والطاعة والدين . يلحظ الدراسة التي قدمت في عام ٧٩ ، ثم في عام ٨٤ ، وظهور ذات النتيجة (٥) قيم .. وتؤشر الدراستين هامتين على التوصل الى نتائج مباشرة تتصل بالدين وبالتدين، وكذلك الحال بالنسبة إلى ما قام به الدكتور نصار إلهيتي وهو يستقصي ٨٠٩ صفحة من صفحات أدب الطفل وحسب تضيف (وايت) أيضا ، فعثر على (٣٤٨٩) قيمة ، ليس فيها ولا قيمة أخلاقية واحدة ، بل كان التقدم قد حصل في المجموعة الخاصة بالقيم الوطنية والقومية ...واعتقد بأن هزيمة المشروع القومي كله منذ ان بدأ مع رفاقه رافع الهطا طاوي والكواكبي والأفغاني مروراً بعبد الناصر وأخر دعاة القومية ومثلها دمرها ونضالها وكفاحها، إبطالها وجنودها، أهدافها وشعاراتها قد تمت الإطاحة به في عام ١٩٩٠ عندما قام النظام العراقي باستباحة الكويت ، تحولت جميع القيم القومية بين لحظة وضحاها إلى العكس وقد استدارت بدرجة (١٨٠) مما أحبط المشروع الثقافي العربي على مستوى الأقطار وبكافة اتجاهاتها و أنظمتها السياسية والثقافية ،هنا علينا ان نستذكر بأن الكثرة الكاثرة من نتاجات مثقفي الطفل قد ركزت منذ منتصف الخمسينات وحتى فترة التسعينات على توجيه الطفل باتجاه ثقافة قومية شاملة ، وكانت لغة النشريات والدوريات المجلات، الشعر والحكاية والقصة والسيناتور تتضمن على لغة مباشرة، إرشادية ووعظية، بل وتكاد أن تكون تلقينية حادة ومباشرة ، مما خلق جيلاً هجيناً عجيباً، معالياً، وصل الامر فيه بأطفال العراق مثلاً إلى النقاش الحاد والعالي حول معاني (الديالكتيك) والعلاقة العضوية بين أهداف الأمة في الوحدة ، يلاحظ مثل هذا المد في فترة السبعينات بعد ان تأسست رسمياً (دار ثقافة الأطفال) في عام ١٩٦٩، ولتمارس انتشاراً معمماً على أجزاء كثيرة من أنحاء الوطن العربي ، إذ وظفت مجلة (مجلتي) و (المزمار) بهذا الاتجاه، مما احدث هوة واسعة في تربية الطفل بإلغاء حالة التوازي في منح القيم لهؤلاء الأطفال، أي بث القيم الوطنية والقومية، وقيم حب العمل والأخلاق والاقتصاد والبيئة بالإضافة إلى القيم الفكرية في احترام العلم والانسجام مع الأخر، بدأ الطفل يفهم بل يؤمن إيمانا مطلق بأن هناك معسكر رجعي ضد الأمة ومعسكر تقدمي مع الأمة، دونما تبريرات أو تسبيبات، وهذا بالفعل الحاد بين هذين المعسكرين إن صح التعبير، أدى إلى خلق (فراغ) لا يمكنه إلا بطل من الإبطال على مستوى صلاح الدين الأيوبي أو خالد ابن الوليد،

ينهض بالأمة لكي يحرر فلسطين ، مما حول جميع نشريات هذه الدار – وهي نشريات هائلة كمياً – إلى الانحراف تدريجياً نحو ما نسميه نحن بـ (عبادة الفرد) الواحد، الأحد ، البطل، المفكر، القائد ، المؤمن، الضرورة، حبيب الأطفال وأبو العائلة الصغرى وسيد المجتمع، ورائد العدالة الأول، قائد الجيش الذي سيحرر الأرض المحتلة وينظف القدس من درن الاحتلال، حامل الراية والسيف، الرجل الرجل الباسل، المغوار، الشجاع ، إذ اشتغلت مطابع العراق وهي تطبع الملايين من هذه المجلات وبهذا الاتجاه فإذا بالمدافع تستدير في واحدة من أطول الحروب التي نشبت بعد الحرب العالمية الثانية ولثمان أعوام من الدمار والقتال تحولت لغة الخطاب (discors) ليتمكن تلقين الطفل بأكثر الكلمات بذاءة وخسة في شتم الأخر – الأخر الذين هم الفرس ، في حين كان الأخر الأول هم اليهود الصهاينة.. وبدلاً من القدس، صرنا نعلم الأطفال بأن التحرير سيأتي عبر طهران، وانتهى الأمر بعد هذا إلى الهاوية الحقيقية، ففي الوقت الذي كان يضخ فيه المطبوع العراقي الخاص بالطفل باتجاه الإخوة العربية و (إخوتنا في الخليج) أصبح هذا الأخ وفي (ثلاثة دقائق) في زمن إذاعة بيان استباحة الكويت، وبدأ تثقيف الطفل العراقي، على أعدائكم في الخليج من العرب، وارتبكت خارطة ثقافة الطفل العراقي وانحدرت نحو الحضيض، بل إلى القعر، إذ اختلفت وسيلة التعبير مع ثبات المرسل – النظام.. وأصبحت مجلات وصحف الأطفال صفراء لا تعرف إلا الشتائم والكلام البذئ الغل والحقد... موضحاً في هذه الدراسة ترسيمة الطفل العراقي وفق المنهج التالي:

تدريب شبه عسكري تدريب عسكري احتراف عسكري

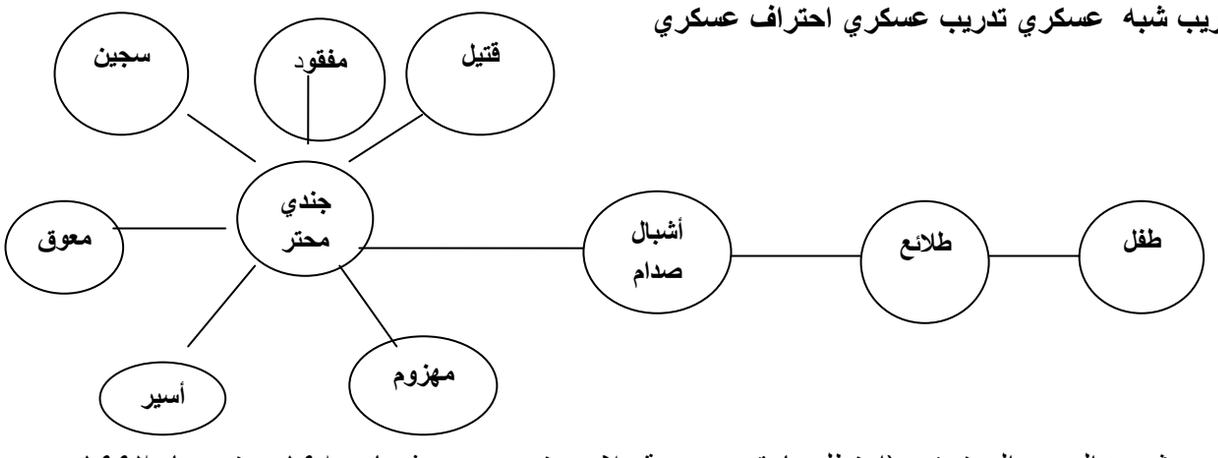

وتحت شجرة الجندي المحترف، (استظل ما يقرب خمسة ملايين يتيم حرب منذ عام ١٩٨٠ وحتى عام ١٩٩٢ مع ما يقرب المليون أرملة) فقدت زوجها في الحرب ، كان الطفل فيها ومن كل الفئات العمرية يعيش وسط طوفان لغوي هائل من لغة الدعوة إلى القتل والذبح والغزو والعداء.. وكما طوفان البشر في التظاهرات المليونية، إذ يتحول الفرد إلى جزء من حشد، والحشد من خلال الخبرة الماضية يتحول إلى قطيع تحول هذا الفيضان اللغوي، إلى لغة الهذيان والاستعداء والقتل، وما على الكبار من واجب إلا اختيار المفردات المناسبة أمام أطفالهم خوفاً من زلات اللسان التي لا تحسن عقباها.

وانفتحت الهوة كما ينفتح شقي المشنقة على لغة جديدة، هي الدين، وبدلاً من العروبة، والرسالة، والتحرير، والكفاح والقدس، أصبحنا ونحن في الإسلام والرسالة المحمدية ، والجهاد ، الكافر، جهنم، العذاب، وفق مشروع استراتيجي اسمه (الحملة الإيمانية) والتي بدأت مع الطفل منذ الصف الأول الابتدائي، أي من سن السادسة ، وحتى الثامنة عشر في الصف المنتهي (السادس إعدادي) وعلى نفس الأسس التلقينية السابقة غير إن احتواء (المنظومات

العربية الإسلامية، المعدلة)(٤) من خلال مجموعة القيم الأساسية ومجموعة القيم الاجتماعية توجهت اللغة سواء اللغة العادية– المحلية، أو اللغة العربية الفصحى لعرض نفسها في هذا المجال الخطير.

نعلم جميعاً بأن الإنسان يولد في دين ، سواء كان هذا الدين سماوي وحداني، أو وضعي فأن هذا يمس حياة الطفل مباشرة ومنذ يومه الأول عبر التلقين أو التقليد ، عبر التطبيق أو عبر الطقوس، عبر العبادات أو المراسيم ... كل هذه حواضن صغيرة ، في حاضنة اكبر هي حاضنة الدين، وبعد إخفاق ما أسميناه بـ (المشروع التقدمي) وبعد الإخفاق الواضح لـ (المشروع القومي)، نلاحظ صعوداً واضحاً وعالياً للمشروع الثالث وهو (المشروع الديني) وهو اخطر هذه المشاريع قاطبة لأنها تمس عقائد الناس وتكوينهم الروحي واليوم تحاول لغة جديدة – بالمعنى غير التقليدي، لاستتباب لغة دينية لا نعرف بعد مغزاها، عبر مجلات الأطفال وصحفهم، عبر الشاشة البيضاء، وعبر الانترنت ووسائل الإعلام الموجهة ، أصبح الطفل يسمع ولو للمرة الأولى عن الأخر – الكافر الذي يجب إبادته وقتله وعن أوطان – الكفر، وعن الهجرة إلى بلدان الكفر والمعصية وعن المسيحيين والصليبيين، وعن اليهود الفجار، وعن أمير الجماعة، وأمير الأمراء، وعن بيانات القتل، وعن الدية والضحية، الخطف ، اغتصاب العرض، وليمة الجنة ، الفطور مع الرسول ، جنة الفردوس ، الجهاد مع العرب الأفغان والأفغان العرب... عن (أبو) وعن (أبا) وعن (بن) وعن (ولد) لأسماء... تدعو للجهاد والقتال ... كل هذه يستقبله الطفل من مجلاته أو مجلات الكبار ، من برامجه أو برامج الكبار، من الشاشات المفتوحة على مدار الـ(٢٤) ساعة ومن الانترنت والعاب الطفل .. علينا أن نتنادى لكي نفهم بعضنا .. بأن أطفالنا .. أطفال الغد إما ذابح أو ذبيح. وكما طريقة المنهج العلمي في البحث فأن الطفل يمر بثلاثة مراحل متتالية وهي وفق الرسم التالي :

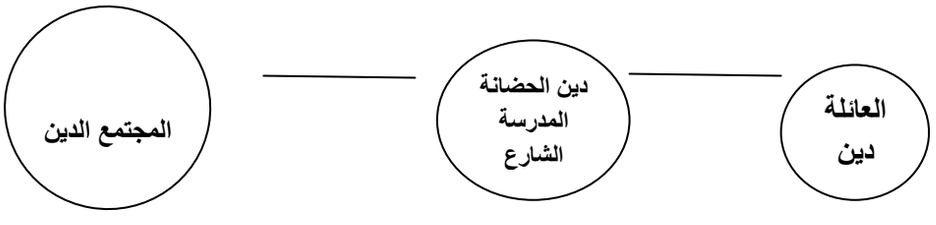

فيكون الدين وما يضخ إليه من لغة ، هي التي ستتلبس حياته وتفكيره فهو القرين الملازم للإنسان خصوصاً العربي، منذ التشهد في إذنيه عن الولادة وحتى ما نسميه نحن بـ(التلقين) عند مراسيم الدفن ولهذا بالضبط ومنذ التسعينات بدأ الدين يتدخل بطريقة قوية في حياتنا ، وهنا يعلن الباحث عن تخوفه الشديد من هذا البرنامج الواضح في التطرف من تعليم الصغار، بأن الأخر هو عدوه الذي يجب أن لا يتكلم إليه أو أن يعاديه وبمستوى أن يحاربه ، لما تضخ البرامج الدينية له بأن دار الأخر، هي دار كفر وبغي، والمشكلة التي يجب أن يتم الانتباه لها ، أن حاجزاً ما ، لا يوجد بين الطفل وبين فضائيات الكبار وبرامجهم ، فتكون الهجمة باتجاهين هجمة العائلة التي ترى هذه البرامج مع الطفل ، وهجمة الشاشة نفسها عليه... مما يوصد الأبواب دون عقله وروحه ، وهكذا تكون النتيجة ، بأننا نحن فقط في الجنة وما عدانا في النار.. في الجحيم وبأس المصير.. مما يهيئ أرضية لا يمكن كسرها للإرهاب وقتل واستباحة الذات ، قبل قتل الآخرين ، وخصوصاً وان النمو العقلي الذي يحول العقل عن طريق الكلمات، واللغة حاصل لمعان ، كما أنها تؤثر في الاستجابات الانفعالية إذ (يتم تعلم الطفل الاستجابات الانفعالية لمواقف معينه عن طريق ملاحظة الآخرين . فيستجيب بنفس الأسلوب الانفعالي للآخرين لمواقف لم يكن في السابق لستشيره انفعالياً ، وقد بين أن الأطفال يستجيبون لنفس الانفعالات ويعبرون عنها بطرق تماثل تلك التي يلاحظونها الكبار)(٥).

أن الطفل العربي اليوم يقع تحت مطرقة ثقافة العائلة ونحن جميعاً ندرك أهميتها وبين سندان البرامج الدينية ، حلقات المساجد ، محطات التلفزيونات المحلية ، الفضائيات العربية التي اجتاحت الحدود.. وما الطفل إلا قطعة حديد صغيرة، إما أن تتشكل فتكون مسماراً يدق في نعش مجتمعاتنا أو مسماراً في البناء.

الفصل الثالث:

النتائج والاستنتاجات

١- تمارس اللغة وتحولاتها أهميتها القصوى على الطفل وبمختلف الفئات العمرية المعروفة لدى الدراسات النفسية واللغوية .

٢- ضعف عمل المؤسسات التربوية والنفسية والإعلامية في رصد ظاهرة هذه التحولات وتطرفها وزخمها وضغطها على الطفل خصوصاً وعلى بقية الإفراد وفئات المجتمع الأخرى .

٣- السرعة في اندثار مفاهيم واصطلاحات ومفردات لغوية وحلول مفاهيم واصطلاحات ومفردات جديدة محلها لم تكن مألوفة من قبل مما شكل ارباكاً واضحاً في حياة الأطفال .

٤- إن هذه الهزات والارتباكات العنيفة التي وقعت في عموم مجتمعاتنا العربية وفي مجتمعنا العراقي خصوصاً أدت إلى ارتباك المؤسسات الخاصة بنمو الطفل مع ضعف مناقشة وفحص هذه الهزات منهجياً.

التوصيات

١- دعوة مؤسسات المجتمع المدني ومنظماته الإعلامية والتربوية والنفسية إلى مناقشة هذه الظاهرة لفحصها واستقصائها علمياً .

٢- دعوة كافة مؤسسات الدولة من وزارات ومؤسسات بحثية إلى وجوب اتخاذ كافة الإجراءات للتصدي لظاهرة هذه التحولات وبما يمكن الطفل من تجاوزها وتمثلها وذلك عن طريق تبني ما هو صالح في حياته وتجاوز ما لا يصلح .

٣- دعوة كافة الأسر إلى رصد سلوكيات أطفالهم ودعمهم لتجاوز هذه الهزات الاجتماعية وما ولدته من اثر نفسي وسلوكي (على مستوى اللغة) وتداوليتها من خلال برنامج خاص تقوم به هذه الأسرة.

الهوامش والمصادر

(١) عبد الغذامي : النقد الثقافي ، قراءة في الأنساق الثقافية الطبعة الأولى ،ص ٢٣ .

(٢) Paul Henry Muss- - Child Developmemt and Paul Henry Muss - - Child Developme andpersonality ت – دحام الكيال : بغداد (مكتبة دار المتنبي) مطبعة العاني ، ط ١ ، جـ ١ ، ص ١٨٧ ، ١٩٨٨ .

(٣) المعتوق ،احمد محمد،الحصيلة اللغوية ، الكويت (سلسلة عالم المعرفة) ص ١٩٩٦ ،٥٢ .

(٤) يلحظ : سمر روحي الفيصل ، أدب الأطفال وثقافتهم دمشق (اتحاد الكتاب العرب) ص ٩ ، ١٩٩٨.

(٥) صباح حنا هرمز ويوسف حنا إبراهيم : علم النفس التكويني – الطفولة والمراهقة ، الموصل (مديرية دار الكتب للطباعة والنشر) ص ٣٥٣ ،١٩٨٨